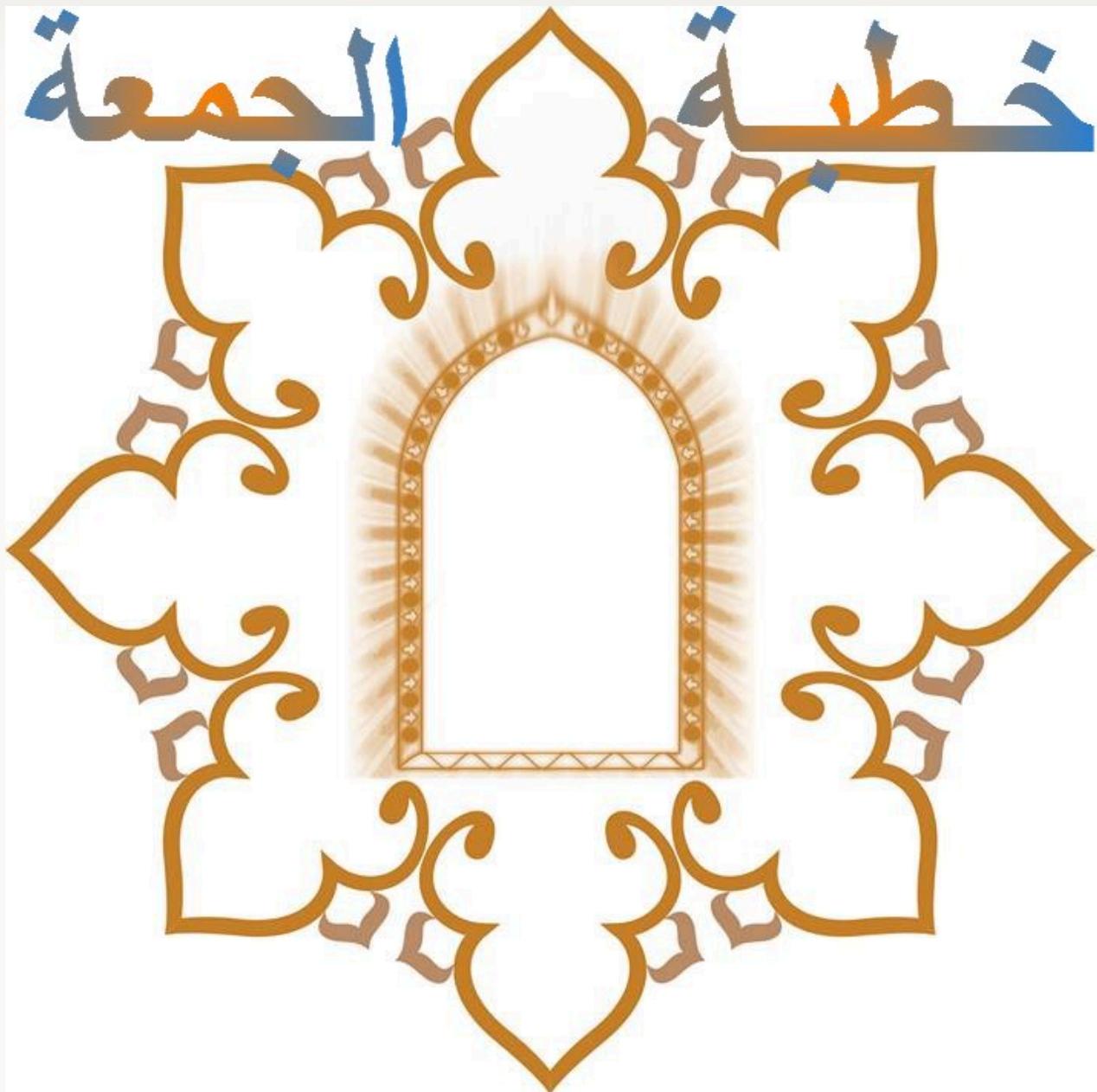


من أخلاقنا في الجهاد - الثبات

الكاتب : رابطة خطباء الشام

التاريخ : 20 أكتوبر 2014 م

المشاهدات : 5662



رَابِطَةُ خُطَّابَاءِ الشَّامِ

Sham Khotaba Association

مقدمة: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ التَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ)[1]

وقد تحقق ذلك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم واقعاً ملماً، فكم لقي النبي من أنواع الأذى والصدِّ وأسباب اليأس، ولكنه صبر وثبت حتى لقى ربه، وتابع المسيرة من بعده أصحابه رضوان الله عليهم حتى أوصلوا دين الله إلى بقاع الأرض .

والذي ينبغي أن تكون عليه اليوم هو متابعة المسيرة مهما لقينا من إرباء وصَدِّ، ومهما واجهنا من أسبابٍ للإياس والقنوط.

عناصر الخطبة:

1 – التجلد للعدو.

2 – الذكر والثبات.

3 – الدعاء من أسباب الثبات:

- حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر.

- حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق.

4 – المعصية تؤثر في الثبات:

- إرشاد الله للصحابة في غزوة أحد.

5 – عدم الاغترار بالباطل.

6 – طريق الحق طويلاً.

1 - التجلد للعدو:

نفي النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني لقاء العدو، وذلك لأن المقصود من لقاء العدو ومقارعتهم هو نصرة الإسلام، واللقاء قد يفضي إلى عكس ذلك فنفي عنه، أو لعل الكراهة مختصةً بمن يثق بقوته ويُعجبُ بنفسه[2]

ومع ذلك فإنه أوصى بالثبات إن حصل اللقاء، فقال صلى الله عليه وسلم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنُوا لِقاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْغَافِيَةَ، فَإِنَّا لَقِيتُمُوهُ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّبُوفِ، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيِ السَّحَابِ، وَهَازِمُ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ).[3]

لذلك أمر الله سبحانه عباده بالثبات حين اللقاء فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِيهِ فَاثْبِتُوْا وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الأنفال 45

قال ابن كثير رحمة الله: هذا تعلیمُ اللَّهِ عِبَادُ الْمُؤْمِنِينَ آدَابَ الْلِقَاءِ، وَطَرِيقَ الشَّجَاعَةِ عِنْدَ مُواجهَةِ الْأَعْدَاءِ.[4]

وقال القرطبي رحمة الله:(فَاثْبُتوا) أَمْرٌ بِالثَّباتِ عِنْدَ قِتَالِ الْكُفَّارِ، كَمَا فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا النَّهْيُ عَنِ الْفِرَارِ عَنْهُمْ، فَالْتَّقِيُّ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ عَلَى سَوَاءٍ. وَهَذَا تَأكِيدٌ عَلَى الْوُقُوفِ لِلْعَدُوِّ وَالتَّجَلِّدِ لَهُ.[5]

2 – الذكر والثبات:

الله سبحانه وتعالي قرن الثبات في الحرب بكثرة ذكره (فَاثْبُتوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا)، وهنا لطيفة من اللطائف نجدها في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني,...).[6]

ومن كان الله معه فلن يُغلب؛ فال المسلمين يستمدون قوتهم من الله (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ) هود 66، والأعداء يستمدون قوتهم من الشيطان (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) النساء 76

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتَلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَانَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) النساء 76

3 – الدعاء من أسباب الثبات:

قال تعالى: (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُوْدِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبَرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَّ مُوْهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ...) البقرة 250 – 251

ولا شك أن الدعاء والتوجه إلى الله – تعالى – في مثل هذه الحال مما يزيد المؤمن المجاهد قوةً وعزيمةً ومصابرةً للشدائـد.[7]

و خاصة إن كان العدد قليلاً، كما كان حزب الإيمان من أصحاب طالوت في هذه الآية[8] فكيف لو اجتمع قلة العدد مع قلة الناصر مع كثرة الخاـذل مع قوة العدو؟!

وهذا ما أرشد الله إليه المسلمين في غزوة أحد وقد أصحابهم ما أصحابهم، فضرب لهم مثل الأنبياء السابقين ومن قاتل معهم، وكيف صبروا على ما أصحابهم في سبيل الله وماذا كان قوله؛ فقال تعالى:

(وَكَيْنُ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِيعُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهْنَا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَاتَّهُمُ اللَّهُ تَوَابُ الدُّنْيَا وَحَسْنُ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُ الْمُحْسِنِينَ*) آل عمران 146 – 148

فكأن الله يقول لهم: [فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟ فأجاب دعاهم وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة في الدنيا، والمغفرة في الآخرة إذا صاروا إليها. وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدینه، الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق، وقوله الصدق: (والله يحب الصابرين)(يعني الصابرين على الجهاد].[9]

حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر:

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر يضرع إلى الله بالدعاء وقد رأى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين، فكيف كان حاله؟

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين

وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه، ماداً يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداوه عن منكبيه، فأتاها أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا النبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سيُنجِّز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: {إذ تستغثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} الأنفال: 9

فأمده الله بالملائكة، قال أبو زمبل: فحدثني ابن عباس، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتند في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطأ أنفه، وشق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة"، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسرعوا سبعين،...)[10]

وقد قال الله عز وجل بعدما بشر المؤمنين بالملائكة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحْفًا فَلَا تُؤْلُهُمُ الْأَدَبَارَ) الأنفال 15.

حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق:

ويوم الخندق يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه: (لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزل السكينة علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا، إن الألى قد بعثوا علينا، إذا أرادوا فتنة أبغضنا) [11]

4 - المعصية تؤثر في الثبات:

إن الذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان، وإن الطاعة والاستقامة من أسباب الثبات والنصر والفرح، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَصَرَّفُوا اللَّهُ يَنْصُرُكُمْ وَيُنَيِّبُ أَقْدَامَكُمْ) محمد 7.

ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين، إن نصروا ربهم، نصرهم على أعدائهم، وثبت أقدامهم، أي عصّهم من الغرار والهزيمة.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، وبين في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يُنَصِّرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) الحج 40.

إرشاد الله للصحابي في غزوة أحد:

ولهذا أرشد الله أصحابه صلى الله عليه وسلم الذين هزموا في غزوة أحد بمعصيتهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم في النزول من على جبل الرماة ، أرشدهم إلى أن يقولوا كما قال أصحاب الأنبياء السابقين : (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) آل عمران 147

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المجاهدين على الجبهات في أن يرجعوا إلى أنفسهم ويتهموها بالقصير والإسراف، فإنما يُؤتى المسلمين من قبل تقصيرهم.

قال صاحب تفسير المنار رحمه الله:

[ومنها أن الذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان، وأن الطاعة والاستقامة من أسباب النصر

والفالح ; ولذلك سألوا الله أن يمحو من نفوسهم أثر كل ذنب وإسراف، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات.[12]

ولذا علم الله من عباده صدقًا هيأ لهم كل أسباب الثبات ومنها إنزال الملائكة تقاتل معهم، قال تعالى:(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُو الَّذِينَ آمَنُوا سَلَّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوْ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)
الأنفال 12

5 – عدم الاغترار بالباطل.

إن الباطل مهما علا ولجلج فإنه زاهق، والحق مهما ضعُفَ فإنه متصرُّ، كيف لا والله من وراء الحق،(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)
لقمان 30

ودولةُ الباطلِ ساعة، ودولةُ الحقِّ إلى قيامِ الساعة؛ لذلك قال الله تعالى: (لَا يَغُرِّنَكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَنَاعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاًوْهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسْسَ المِهَادُ*) آل عمران 196 – 197

فالمؤمنون مهما رأوا من تحشُّدِ الأعداءِ ضدَّهم لا يزددهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً، كما قال الله جل في علاه: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ) آل عمران 173

فرجعوا منتصرين غالبين غانمين، (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) آل عمران 174

6 – طريق الحق طويل.

لا تستطُلُ الطريق ..

الطريق طريق تعِبَ فيه آدم

و ناح لأجله نوح ..

و رُمي في النار الخليل

و أُضْجِع للذبح إسماعيل ..

و بيع يوسف بثمن بخس و لبث في السجن بضع سنين

و نشر بالمنشار زكريا ..

و ذُبح السيد الحصور يحيى

و قاسي الضرّ أيوب ..

و زاد بكاء داود

وعالج الأذى محمد - صلى الله عليه وسلم -

ولكنكم تستعجلون ...

إنما يقطع الطريق ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد السائر عن الطريق أو استطاله ونام الليل فمتى يصل

إلى المقصود؟ متى!

أفيفوا استيقظوا وخذوا من الأسلاف *** ممن قبلكم عظة تثير قلوبكم وتبصر
رومأن في جبروتها وغرورها *** رضخت لمن حملوا الضياء وحرروا
دحر البغاء بظلمهم وشرورهم *** فخذوا دروسا منهم واستعبروا
ولن يحاسبك الله على عدم بلوغ الغاية، وإنما يحاسبك على عدم الثبات عليها.

=====

[1] سلسلة الأحاديث الصحيحة / 3228

[2] فتح الباري / 13/224 / باب كراهة تمني لقاء العدو

[3] البخاري / 2965، ومسلم / باب كراهة تمني لقاء العدو / 1742

[4] تفسير ابن كثير 4/70

[5] القرطبي 8/23

[6] البخاري / 7405 – مسلم / 2675

[7] تفسير المنار 4/142

[8] انظر تفسير ابن كثير 1/669

[9] تفسير القرطبي 4/231

[10] مسلم / 1763

[11] البخاري – الفتح 6 (2837) وهذا لفظه. ومسلم (1803) .

[12] تفسير المنار 4/142

المصادر: